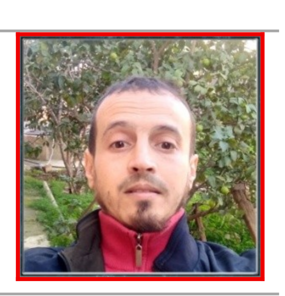

نصرُ الدِّينْ عَمْيَار: كَاتِبٌ عَامٌ، ومُحُبٌّ للحكمة، وَنَاشِطٌ بِيئِيٌّ، وَمُدِير وُمُنْشِيءُ مُنَّظَمَةٍ غَيْرَ حُكُومِيَّةٍ (ONG) وَلَا تَسْعَى لِلرِّبحِ (OSBL) أَيْضًا، تُسَمَّى:"جَلَاءٌ لِلنَّبَاتَات الطِّبِّيَّة".

للتَّوَاصُل: nasrdine-amiar@hotmail.com

«ألمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ».

نُشِرَ: الأحَد/1/أكتوبر/2023/السَّاعَة: 8:49 م.

مُنْذُ بِضْعَةِ أَيَّامِ، فِي حَيِّنَا الْمُسَمَّى «بَنْ عُمَارْ»، وَبَيْنَمَا أَنَا آتٍ مِنَ المسجدِ إِلَى الْمَنْزِلِ -بَعْدَ أَدَاءِ صَلَاةِ الْعَصْرِ- وَإِذْ بي أصَادَفُ لُمَّةً مِنَ الْأَطْفَالِ يَلْعَبُونَ كُرَةَ الْقَدَمِ، فَأَعْجَبَنِي لَعِبُهُمْ الَّذِي كَانَ عَلَى مَقرُبةٍ مِنْ مُسْتَوَى الاحْتِرَافِ، فَتَبَادَرَ إِلَى ذِهْنِي - بِشَكْلٍ عَفَوِيّ- أَنْ أَخْتَبِرَهُمْ فِي لُعْبَةِ كُرَةِ الْفَهْمِ الَّتِي هِيَ فِي زَمَنِنَا عَلَى بُعْدٍ مِنْ مُسْتَوَى الاحْتِرَافِ.

عَقِبَ نِهَايَةِ الْمُبَارَاةِ الصُّغَيْرَةِ، وَإِذْالْأَطْفَال فِي أَرْضِيَّة المَلْعَب (المُحَقَّرَة الرّديئة) بين قَاعِدٍ وَقائِمٍ بَغَاتُهُمْ بِسُؤَالِهِمْ هل لسُورَةِ الْفِيلِ حَافِظُونَ؟، فَتَبَارَكَ الله، وَجَدْتُ أنَّ الْكُلَّ يحفظ سُورَةَ الْفِيلِ عَنْ ظَهْرِ قَلْبٍ؛ فَقَدْ قَرَأَهَا كُلُّ وَاحِدٍ مِنْهُمْ حَقَّ قِرَاءَتِهَا، حَرْفًا حَرْفًا، وَكَلِمَةً كَلِمَةً. وعَلَيْهِ؛ وكما هو دَأْبِي، الشُّكر لِمَنْ أَحْسَنْ، اِقْتَضَى عَلَيَّ مَدّ الثَّوَاب لِكُلِّ وَاحِدٍ مِنْهِم حَبَّةً من الْحَلْوَى العُوْدِيّة «kojak».

مجدَّدًا، وَبَعْدَ وَعِدْهُمْ بِثَوَابٍ أَرْفَعُ قِيمةً مِنَ الثَّوَابِ الأوّل شَرْطَ أنْ يقدِّموا إِجَابَاتٍ صائِبة، سألتُ اللُّمَّةَ عن المناسبة الَّتِي بسببها نَزَلَتْ سُورَة الْفِيل؟، وَمَا بَيْتُ القصيدِلأَصْحَابِ الْفِيلِ؟

عَفَا اللَّهُ عَنَّا وَعَنْكُمْ؛ فَقَدْ أَصْبَحَ كلُّ أفرادِ اللَّمَّة صُمٌّ بُكْم يَنظُرُوا بَعْضُهم إلى بَعْضٍ إلَّا خَالِدَ الَّذِي أَجَابَ عَنِالسُّؤَالَ بِقَوْلِهِ: «رُبَّمَا نَزَلَتْ لأجْلِ تَشْرِيف وَتَكْرِيمِ الْفِيلِ»، فَتعجَّبْتُ مِن جوابِهِ.

ثُمَّ سَأَلْتُهُ وَمَا بَيْتُ القصيدِلأَصْحَابِ الْفِيلِ؟. فَأَجَابَ: «إنّهم أَصْدِقَاءُ الْفِيلْ وَأَحِبَّائه»، فَتعجَّبْتُ كَرّةً أُخْرَى من جوابِهِ؛ لأنَّ «خَالِدَ» لَمْ يَكُ صائِبًا فِي جوابِهِ، وَلكِنَّ جوابهُ لَمْ يَكُ بِتِلْك الدَّرَجَةِ الَّتِي تَضَعُ جَوَابَهُ في خَانَةِ الأجْوِبَةِ السَّاذَجَة، حَيْثُ يُمْكِنُنَا أنْ نَسْتَنْبِطَ من جَوَابِهِ الأوّل: «أَنَّهُ يَرى أنّ الْفِيلَ مَخْلُوقٌ عظيم، وَبِالْفِعلِ؛ إنّ الْفِيلَ مَخْلُوقٌ عظيمُ الشَّأن، حَيْثُ رَسَّخَ الرَّاسِخُوْن بِعِلْمِ الحَيوانِ أنّ الفِيَلَة ذكيَّةٌ جِدّاً ولها أكبر الأدمغة بَيْنَ حَيَوَانَاتِ الْيَابِسَة كُلِّهَا؛ فالْفِيلُ البرِّيُّ مَثَلَا يستطيعُ بِالْغَرِيزَةِ وَالْفِطْرَةِ الْإِسْتِجَابَة لِحَرَكَةٍ مِنْ إصْبُع الإنسان تَرْشُده لِمَكَانِ الْغِذَاء دُونَ أيِّ تَرْوِيض مُسَبَّق. ولذا خَالِد -على الأرْجَح- قرأ عن الْفِيلِ في الكُتب، أو شاهِدَهُ في فِيلمٍ وَثَائِقِيّ تِلِفِزْيُونِيّ، أو أَبْصَرَهُ عنْ كَثَب في حَدِيقَةِ الْحَيَوان، فَأَعْجَبَهُ وَرَأَى أنّه مخلوقٌ عظيم يستحقُّ التَّشريف، إذْ إنّه لَمْ

يَكُنْ ليقول ذَلِكَ لَوْ كانت الآيَة تقول :«ألم تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الصَّرْصُور أو بِأَصْحَابِ الْفَأر!...».

وفي جَوَابِهِ الثَّانِي مِنَ الجائِزِ أنْ نَسْتَنْبِطَ أيْضًا: «أنّ جوابهُ كان سطحيّ يَسْتَنِدُ إِلىَ المَعْنَى الظَّاهِرِ لِمُفْرَدَاتِ الآيّة، وَهُوَ في هَذَا صَائِب، وَهَذَا مَا يَجْعَلُ جَوَابَ خَالِدَ بَعِيدًا عَنِ الأجوبةِ السَّاذَجَة، فَقَدْ بَذَلَ كُلَّ مَا بِوِسْعِهِ للإجَابَة بالشَّكْلِ الَّذِي فَهِمَهُ».

كنت سَأَسْأَلُهُ عن سُورَةِ الْبَقَرَةِ ، فَخَشِيتِ أن يقولَ سمِّيت بالبقرة لأنّها تمدّنا بالحليب وَالْجُبْن فتحاشَيْتُ ذلك لِعَظَمَةِ الْقُرْآنِ.

حَدِّثْ وَلا حَرَجَ، فكلٌّ معرّضٌ لذلك، أَذْكُرُ أنّي كُنْتُ فِي أوائِلِ سِنِّ الرُّشْد قَدْ فَهِمْتُ آيةً مِنْ آيَاتِ الله -عَزَّ وجلَّ- فهمًا سطحيًّا ساذجًا، وَذَلِكَ لِجَهْلِي التّام في عِلْمِ النَّحْوِ، والآيَة في سُورَةِ فَاطِر: ﴿ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ ﴾ (الآيَة/28)، حَيْثُ فَهِمْتُ أنّ الآية تَعْنِي «أنَّ اللَّهَ هُوَ الَّذِي يَخْشَى الْعُلَمَاء»، فِي حِينِ أنَّ الآية عَلَى الْعَكْسِ مِنْ ذَلِكَ تَمَامًا، وهو «أنَّ الْعُلَمَاء هُمْ الَّذِين يَخْشَوْن الله». ظلَّ هذا الْفَهْمُ يُؤَرِّقنِي وَيُبَارِزنِي، مُبَارَزَةٌ بَيْنَ قَلْبٍ يَسْتَنْكِرُ، وَعَقْلٍ يُؤيِّدُ، وَسَاوَرَتْنِي الشُّكُوكُ وَكِدْتُ أنْ أقعَ فريسَةً لِسَطْوَةِ الْوَسْوَاسِ الْخَنَّاس، حتَّى اكْتَشَفْتُ الْفَهْمَ الصَّحِيحَ لِلْآيَة، بَعْدَ ذَلِكَ اطْمَأَنَّ قَلْبِي وَانْسَجَمَ عَقْلِي مَعَ مَا يُلِحُّ عَلَيْهِ قَلْبِي، حَدَث ذَلِكَ مُصَادَفَةً حِينَمَا قَرْأْتُ تَفْسِيرَ الآيَةِ في كتاب تَفْسِيرِ الْقُرْآنِ لِلْعَالِم ابْنِ كَثِيرٍ الدِّمَشْقِيِّ فِي إِحْدَى الْمَكْتَبَات الْوَطَنِيَّة. ظَلَّتْ مُتْعَةُ الفَرَحِ النَّاجِمَةُ عَنِ الفَهْمِ الصَّحِيحِ للآيَةِ تُرَاوِدنِي طِيلَةَ أيَّامٍ.وَهُنَا تَحْضُرُنِي مَقُولَةٌ شَهِيرَةٌ لِلْعَالِمِ الْمَوْسُوعِيِّ الْإِيطَالِيِّ لْيُونَارْدُو دَافِنْشِي أُسَجِّلُهَا لَهُ هُنَا مُفَادُهَا أنَّ: «أَنْبَلَ مُتْعَةٍ هِيَ فَرَحُ الْفَهْمِ».

فِي خَاتِمَةِ الْمَطَافِ، تَعَسَّرَ على الأطفال تقديم أَجْوبَة صائِبَة، وَرَغْمَ ذَلِكَ، ابْتَغَى الأطفال بِإلْحَاحٍ بأنْ أعطيهم ما وَعَدتُّهُم أو عَلَى الْأقَلِّ مَعْرِفَةَ ما هو مُحْتَوَى الثَّوَاب، فَرَفَضْتُ ذلك، جُمْلَةً وتَفْصِيلًا، مُرَاعَاةً لِمَصْلَحَتِهِم، الَّتِي تَقْتَضِ أنْ يَتَرَسَخَّ في أَذْهَانِهِم أنَّ مَنْ جَدَّ وَجَدَ، وأنّ مَنْ تَخاذَلَ خُذِلْ.

وتماشِياً مع ما تم ذكره آنِفًا، يَتَبَادَر إلى الذِّهْنِ سؤالٌ -بِصُورَةٍ بديهِيَّة-: أَلَيْسَ من كُبْرَيَات الخَطِيئَة أنْ نَهْرَعَ بأطفالنا إلَى حِفْظِ القرآنِ عَنْ ظَهْرِ قَلْبٍ دُونَ فَهْمِ مَعَانِيهِ، حَتَّى عَدْوَى التَّلْقِينْ الّتي اجْتَاحَتْ قِطَاعَ التَّعْلِيم الرَّسْمِيّ (الْمَادِّيّ) هي أيْضًا تُهَرْوِلُ نَحْوَ الْمَدَارِسِ الْقُرْآنِيَّة الْأصِيلةِ (الرُّوحِيَّة)؟.

وَمِنْ نافِلَةِ القَوْلِ؛ أنَا لَا أرَغِّبُ في الانْصَرَاف عَنْ الْحِفْظِ عَبْرَ مَعْبَرِ التَّلْقِينِيَّة، إنّ لِلْحِفْظِ عَنْ ظَهْرِ قَلْبٍ من أهميَّةٍ في ترسّيخ المكتسبات، في شتَّى مَجَالات الْعُلومِ، إذْ يُعَدُّ التَّلقِينُ من أبرزِ السُّبُل، وَلَيْسَ السَّبيلَ الوحِيدَ الكافي -كَمَا يَنْبَغِي- الَّذِي يُتَّخَذُ سبيلًا إلى ذِرْوَةِ الْفَهْم، ويظلُّ التَّلقينُ عَمَليّة تَطْبِيع وتَرْوِيض وإمْلاء قَسْرِيّ إذا كان يُعْوِزُهُ الفهْمُ «compréhension».

إنّ أَحَدْ أعمدة المفسرّين الْمُلَّقَب بِتُرْجُمَان الْقُرْآن، الصَّحَابِيُّ الجَليلُ ابْنُ عَبَّاسٍ فسَّرَ قولَ الله -عَزَّ وَجَلَّ- في سورة ص، الآيَة 20: «وَآتَيْنَاهُ الْحِكْمَةَ» أيْ وَآتَيْنَاهُ الْفَهْم. وَعَسَى أنْ نعقّبَ عن تفسيرهِ هذا أنَّ الْفَهْمَ عِنْدَ ابْنِ عَبَّاسٍ

هُوَ أَحَدُ أَسْمَاءِ الْحِكْمَة، وَقَدْ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى : «وَمَن يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا».

وَقَدْ قَالَ النَّبِيُّ مُحَمَّد -عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ-: «مَنْ يُرِدِ اللَّهُ بِهِ خَيْرًا يُفَقِّهْهُ [أيْ يُفْهِمْهُ] فِي الدِّينِ». يُعَرِّفُ النَّابغة فِي الْأدب اللّغَوِيّ اِبْنُ قُتَيْبَةَ أَنَّ الفِقْهَ فِي اللُّغَةِ يَعْنِي : «الْفَهْمُ».

وَعرَّفَ الْفَقِيهُ بَدْرَ الدِّينِ الْعَيْنِيّ الْفَهْمَ بِأَنَّهُ: «جَوْدَة الذِّهن، والذِّهْنُ قُوَّةٌ تَقْتَنِصُ الصُّوَرَ وَالْمَعَانِي، وَتَشْمِلُ الإدراكات العقليَّة والحِسِّيَّة».

وَرُوِيَ عَن سُفْيَانِ بن عُيَيْنَة، قوله: «أَوَّلُ الْعِلْمِ: الِاسْتِمَاعُ، ثُمَّ الْفَهْمُ، ثُمَّ الْحِفْظُ، ثُمَّ الْعَمَلُ ثُمَّ النَّشْرُ» .

وبناءً على ذلك، إنّ حِفْظَ الْبَيَانَ الْقُرْآنِيَّ وَالْعَمَلَ بِهِ دُونَ فَهْمٍ وَتَفْسِيرٍ أَوْ مَعَ سُوءِ فَهْمٍ وسُوءِ تَفْسِيرٍ لِمَعَانِيهِ وَلِأَلْفَاظِهِ، مِنَ المُحْتَمَلِ جِدًّا، أَنْ يَهْوِيَ بِنَا إِلَى حُفْرَةٍ غَوْرٍ وَاسِعَة الْقُطْر من سَفْسَافِ الْأَخْلَاقِ، وَقَدْ يَجْعَلُنَا فَرِيسَةً لِتَبَنِّي الثَّقَافَةِ الدُّوغمائيَّة «الْجُمُود الْفِكْرِيّ» عَلَى كُلٍّ مِنَ الصَّعِيدِ الأُسَرِيّ وَالْمَحَلِّيّ الْوَطَنِيّ وَالدَّوْلِيّ؛ في حِينٍ أَنَّ حِفْظَ الْبَيَانَ الْقُرْآنِيَّ مَعَ فَهْمِ مَعَانِيهِ وألفاظهِ حَقَّ الْفَهْمِ ثُمَّ الْعَمَلَ بِه، فَعَلَى يَقِينٍ مِنَ الْأَمْرِ، سيَعْلُو بِنَا إِلَى مَعَالِيَ الْأَخْلَاقِ، وَكَذَلِكَ يُهيِّئ لنا قابِلِيَّةً لِتَبَنِّي التَّعَدُّدِ الثَّقافِيِّ وَالتَّسَامُحَ عَلَى كُلٍّ مِنَ الصَّعِيدِ الأُسَرِيّ وَالْمَحَلِّيّ الْوَطَنِيِّ وَالدَّوْلِيِّ.

ولهذا دأب وعَكَفَ مُنْذُ القرن الثاني-وما زال إلى يومنا هذا- جَمْعٌ من العُلَمَاءَ المُفَسِّرِينَ واللغويين والنَحْوِيِّينَ وَالمُؤَرِّخِينَ على تَأْلِيفَ الكُتُبِ في تَفْسِيرِ الْقُرْآنِ، أَبْرَزُها جَامِع الْبَيَان عَنْ تَأْوِيلِ الْقُرْآنِ لِلطَّبَرِي، وَبَحْرِ الْعُلُوم للسَّمَرْقَنْدِيّ، وَمَعَالِمَ التَّنْزِيلِ لِلبَغَوِي، وَتفْسِيرُ اِبْنِ كَثِيرٍ، ومَعَانِي الْقُرْآنِ لِأَبي زَكَرِيَّا الفَرَّاء، وَمَعَانِي الْقُرْآنِ لِلْأَخْفَش الأَوْسَطِ، وَمَعَانِي الْقُرْآنِ لِأَبي إِسْحَاقَ الزَّجَّاج، وَمَعَانِي الْقُرْآنِ لِأَبي جَعْفَرٍ النَّحَّاس، وغيرها ما يَزِيدُ على أربعمِائَة مُؤَلَّف.

وَمِنْ أَوْضَحِ الْأَمْثِلَةِ فِي هَذَا السِّيَاقِ ، مَا أَوْصَانَا به التَّابِعِيُّ الكُوْفِيُّ، الفَذُّ النَّابغ ، عَبْدُ الرَّحْمَنِ السُّلَمِيُّ (ت: 74 هـ) فِيمَا يَرْوِي عَنْ مدرسٍ من مدرسّيه الذين عَايَشُوا النَبِيَّ مُحَمَّد ـ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَام ـ وتَعَلَّمُوا آيَاتِ القرآن منه: «أَنَّهُمْ إِذَا تَعَلَّمُوا عَشْرَ آيَاتٍ لَمْ يُجَاوِزُوْهُنَّ إِلَى العَشْرِ الآخَرِ حَتَّى يَعْلَمُوا مَا فِيْهِنَّ». والْعَجِيب مَا رَوَاه الإِمَامُ الكَبِيْرُ إِسْمَاعِيْلُ بنُ أَبِي خَالِدٍ (ت:145 هـ): «أن أبا عَبْدِ الرَّحْمَنِ السُّلَمِيُّ [أيْ مدرسَّه] يدرسه القُرْآنَ خَمْسَ آيَاتٍ خَمْسَ آيَاتٍ [وَهُوَ الَّذِي كانَ يتعلَّمُ القرآن عِندَ رَسُولِ اللَّهِ عَشْرَ آيَاتٍ عَشْرَ آيَاتٍ، لَحِكْمَةٍ بَالِغَةٍ وَاضِحَةٍ جَلِيَّةٍ فسرتها جزئيا آنفًا، أبو عَبْدِ الرَّحْمَنِ السُّلَمِيُّ قلَّص عَدَدَ الآيات]».

وَفِي زَمَنِنا هذا يوجد من يحفظ القُرآنَ كلّه أو ما يزيد عن ألفِ آيةً عَنْ ظَهْرِ قَلْبٍ ولا يعي تفسيرها ومعانيها. وَقَدْ رُوِيَ أَنَّ عُمَرَ بْنِ الْخَطَابِ – رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - حَفِظَ سُورَةَ الْبَقَرَةَ فِي عَشَرِ سَنَوَاتٍ ما كان يعجزه أن يحفظها كما يحفظ سُورَةَ الْإِخْلَاصِ ، أو يشرب كُلَّ القرآن شُربَ الماء، فما الذي أبطأه

عشر سنوات كاملة؟. وَقَدْ صَحَّ عَنْهُ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ -: أنّه قالَ: «مَنْ عَمِلَ بِغَيْرِ عِلْمٍ [أيْ دُونَ فَهْمٍ] كَانَ مَا يُفْسِدُ أَكْثَرَ مِمَّا يُصْلِحُ».

وفي هَذَا الْعَصْرِ، بِدَايَةِ الْقَرْنِ الْحَادِي وَالْعِشْرِينَ، وَبِدَوْرِي، إِنِّي أَقَدِّمُ اقتراحًا بأنْ نتعلّم القرآن آيَةً آيَةً أو آيَتَيْنِ آيَتَيْنِ، بِاسْتِثْنَاء الْآيَات التي يَقْتَضِي البَيَانُ تفسيرها مع بَعْضِهَا الْبَعْضِ.

وَمِنَ الوصايا الَّتِي حفظتها - وَترسَّخت في ذِهْنِيّ - مِنْ لَّدُنْ شَقِيقِيّ الْعَزِيزْ نَبِيلْ عَمْيَارْ -رَحْمَةُ اللهِ عَلَيْه- الَّذِي كان مُحِبًّا للفهم وَعَلَى الدَّوَام يُوصِينِي بالتَّنْقِيبِ عَنِ الفَهْمِ، لَا سِيَّمَا إِذَا رَآنِي أتلُوَ القُرآنَ،يقول لي: يا أخي «قِرَاءَة القُرآن شأنُ عامّةِ النَّاس، وَفَهْمُ القُرآن شأنُ صَفْوَةِ النَّاسْ...»، وَبِصُورةٍ أكثر تحديدًا عندما يَرَانِي اشتريتُ كتابًا جديدًا يقول فيما أصُوغ مَغْزَى كلامه بهذه الصِّيغَةِ: «أيُّ آدَمِيّ اعْتِيَادِيّ يمكن أن يَمْتَلِكَ أوْ يَشْتَرِي كتابًا. أمَّا المسألة الْمُهِمَّة الْجَلِيلَة لِلْآدَمِيّ الاسْتِثْنائِيّ أَنْ يَقْرَأَ وَيَفْهَمَ الكِتَاب». وَقَدْ كَانَ بِحَائِطِ غُرْفَتِهِ مُعَلَّقًا لَافِتَةً مُدَوَّنًا بخطّ جميلٍ عليها: «إِذَا عُسِّرَ عَلَيْكَ مَسْأَلَةً في شَيْءٍ مَا، رَدِّدْ هَذَا الدُّعَاءَ: «يَا مُلْهِمَ عُمَرَ أَلْهِمْنِي، يا مُفَهِّمَ اِبْنَ عَبَّاسٍ أَفْهِمنِي، يا مُحَفِّظَ أَبَا هريرةَ حَفِّظْنِي».

لقد كانَ أخي عَلَى الدَّوام يَنْتَقِدُ الطَّرِيقَة التَّلْقِينِيَّة وَطَرِيقَةَ الْحِفْظِ دُونَ فَهْمٍ، وَعلى الدَّوَام يفضِّلُ عليها اِسْتِرَاتِيجِيَّةَ طريقة الْمُنَاقَشَة والحوار«discussion method». وَأَقْتِبِسُ لَهُ قَوْلًا من أَثَرِهِ: «الْفَهْمُ يحلّق فِي الْآفَاق ؛ وَقَدْ يَتَسَايَر قولنا أَنَّ الفَهْمَ يحلّق مَعَ ما قَالَهُ النَّبِيُّ مُحَمَّدٍ -عَلَيْهِ الصَّلَاة وَالسَّلَامُ-:«وَإِنَّ الْمَلَائِكَةَ لَتَضَعُ أَجْنِحَتَهَا لِطَالِبِ الْعِلْمِ»، فالْفَهْمُ يحلق فِي سَمَاءِ الْعِلمِ يَقْنِصُ الصُّوَرَ وَالْمَعَاني والْفَحَاوِ والمضامينَ، وَالْفَهْمُ يُفْرِحُ القَلْبَ، وصاحب الفَهْم نجده كثيرَ الصّمتهادِئًا مُتَأَنِّيًا حليمًا مَعَ مَنْ يُخَالِفهُ الرَّأْي، وَعصيًّا عن التَّصْنِيف والتحيّزات المدبَّرة الدّسِيسَة، وَيَسْعَى دائمًا إلى التَّسَلُّقْ نَحْوَ أَعْلَى قِمَّةِ الْمَجْد؛ والتَّلْقِينُ - الَّذِي يحتاج الفِهْمُ- يَطْمِسُ وَيُوَرِّثُ الضَّجَر، وَقَدْ يُشْحِذ الغرُورَ، وَهُوَ عَلَى الدَّوَام صَلُودٌ [أَيْ مُتَصَلِّب] بِمَكَانِهِ بِلَا تَجَلجَلْ [أَيْ بِلا تَحَرُّكَ]»، إذْ أنّ صاحب التَّلقين- فِي الغالِب- نجده ثرثارًا بقّاقًا سريع الْاِنْفِعَال وَالتَّسَخُّط مَعَ مَنْ يُخَالِفهُ الرَّأْي، وَتَغْتَالَهُ التَّحَيُّزَات وَيَفْتَرِسُهُ الْغُلُوّ. اِنْتَهَى.

وفِي إِحْدَى الْمَرَّاتِ؛ عَقِبَ صَلَاةِ التَّرَاوِيح، كان شَقِيقِيّ الْعَزِيزْ نَبِيلْ عَمْيَارْ - رَحْمَةُ اللهِ عَلَيْه- صَلَّى بِهِمْ فِي تِلْكَ اللَّيْلَةِ رَكْعَتَيْنِ مِنْ أَصْلِ إِحْدَى عَشْرَةَ رَكْعَةً، سَأَلَهُ أحَدُ الْمُصَلِّينَ متباسطًامُتلاطِفًا: «لَسْتُ أَدْرِي لِمَاذَا أَخْشَعُ حِينَمَا أُصَلِّي خَلْفَكَ، بِرَغْمِ أنَّ نَبْرَةَ صَوْتِكَ نَبْرَةٌ اعْتِيَاديَّة، وَقِرَاءَتَكَ الآيَاتِ قِرَاءَةٌ سَجِيَّة؟» .

أَجَابَهُ:اِبْتِدَاًء: «مِنْ دُونِ غرُورٍ؛ رُبَّمَا لِأَنِّي أَفْهَمُ مَا أَقُولِ، فقد كنت أراجع تفسيرَ الآيَاتِ الَّتِي سَأُصَلِّي بِهَا فِي تِلْكَ اللَّيْلَةِ، وَمَنْ فَهِمَ الْكَلِمَات خَرَجَتْ مِنْ قَلْبِهِ، وَعَلَى ذِمَّةِ مَا كَانَ يَقُولُ المحدِّثُ الشُّجاعُ عَامِرُ بنُ عَبْدِ قَيْسٍ (ت 104 هـ): إِذَا خَرَجَتْ الْكَلِمَات من الْقَلْبِ وَقَعَتْ فِي الْقَلْبِ، وإِذَا خَرَجَتْ مِن اللِّسَان لم تَتَجَاوَز الآذان. وعليه، فشَتَّانَ بَيْنَ من يسمعُ بقلبهِ ومن يسمع بأذنهِ». اِنْتَهَى.

وَ بِمُقتَضَى مع ما تَمَّ ذِكره آنِفًا، اِرْتَأَيْتُ إيْرَادَ لَمْحَة تَعْرِيفِيَّة عن سُورَةِ الْفِيلِ وقصّة أَصْحَابِ الْفِيلِ .

نَزَلَتْ سُورَةُ الْفِيلِ بِمَكَّةَ عَلَى قُدْوَتُنَا وَمُرْشِدُنَا النَّبِيُّ مُحَمَّدْ ـ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ ـ تَذْكيرًا لقبيلةِ قُرَيشٍ – وسائرِ الْعَالَمِينَ مِن الإِنسِ وَالْجِنِّ - بِمَ فَعَلَهُ اللَّهُ -الحَكِيمُ العادلْ- بِأَصْحَابِ الْفِيلِ لتَكُونَ عِبْرَةً لِأُولِي الْأَلْبَابِ وَالأَبْصَارِ منهم.

تُعَدُّ سُورَةُ الْفِيلِ من السُّورِ القصيرة، تَحْوِي خمسَ آيَّاتٍ ، تَحْمِلُ (رقم 105) في المُصْحَف الشَّرِيف، تمدُّنا بِجَوْهَرِ ما جَرَى في المَشْهَد الأخيرِ من قِصَّة أَصْحَابِ الْفِيلِ ؛ سَأَسْعَى مِنْ أَجْلِ سَرْدِهَا بِالاخْتِصَار عَلَى النَّحْوِ الْآتِي :

عَامُ الفِيلِ هُوَ العامُ الثَّالِثُ والخَمْسونَ قَبْلَ الهِجْرَةِ النَّبَوِيَّةِ الشَّـريفَةِ، المُوافِقُ لِسَنَةِ 571 مِيلادِيَّةٍ.

والرَّأْيُ الَّذِي يُشَارُ إِلَيْهِ بِالبَنَانِ أَنَّهُ في عامِ الفِيلِ وُلِدَ رَسولُ اللهِ مُحمّد - عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ - ، وأنَّهُ بُعِثَ بَعْدَ أَرْبَعينَ سَنَةً مِنْ هذا العامّ.

ولَمْ يَكُنْ العَرَبُ يُؤَرِّخونَ بالعَدِّ، وإنَّما كانوا يُؤَرِّخونَ بالأَحْداثِ العَظيمَةِ الّتي تَمُرُّ بِهِم. ومِنَ الأَحْداثِ العَظيمَةِ الّتي أَرَّخُوا بِها عَامُ الفِيلِ.

وقِصَّتُهُ: أَنَّ أَبْرَهَةَ – وكانَ أَميرًا للنَّجاشِيِّ علَى اليَمَنِ – بنَى كَنيسَةً بِصَنْعاءَ عاصِمةُ الجُمْهورِيَّةِ العربية اليَمَنِيَّةِ، لم يُرَ مثلَها في زَمانِها في الأَرْضِ، سَمَّاها «القُلَّيْس»، ثُمَّ كَتَبَ إِلَى النَّجاشِيِّ، وكانَ مَلِكَ مُلُوكِ الحَبَشَة: «إِنِّي قَدْ بَنَيْتُ لَكَ أَيُّها الملِكُ كَنيسَةً لَمْ يُبْنَ مِثْلَها لِمَلِكٍ قَبْلَكَ، ولَسْتُ بِمُنْتَهٍ حَتَّى أَصْرِفَ إِلِيْها حَجَّ العَرَبِ». أيْ ليحج العربَ إلى الكنيسةِ بَدَلًا مِنَ الْكَعْبَة.

فَلَمَّا بَلَغَ العَرَبَ خَبَرُ كِتابِ أَبْرَهَةَ إِلَى النَّجاشِيِّ، غَضِبَ رَجُلٌ مِنَ العَرَبِ، فَخَرَجَ حَتَّى أَتَى القُلَّيْسَ، فَتَغَوَّطَ فِيها، ثُمَّ خَرَجَ وعادَ إلَى أَرْضِه.

فأُخْبِرَ بِذَلِكَ أَبْرَهَةُ فَقال: مَنْ صَنَع هَذا؟ فقِيل لَهُ: صَنَعَ هَذا رَجُلٌ مِنَ العَرَبِ الّذينَ يُقَدِّسونَ الكَعْبَةَ الّتي يحُجُّ العَرَبُ إِلَيْها بِمَكَّةَ، لمَّا سَمِعَ قَوْلَكَ: «أَصْرِفُ إِلَيْها حَجَّ العَرَبِ»، غَضِبَ، فَجاءَ، فَتَغَوَّطَ فيها، تَحْقيرًا لَها.

فَغَضِبَ أَبْرَهَةُ عِنْدَ ذَلِكَ وحَلَف لَيَسيرَنَّ إلَى الكَعْبَةِ حَتَّى يَهْدِمَها. ثُمَّ أَمَرَ الحَبَشَةَ فَتَهَيَّأَتْ وَتَجَهَّزَتْ، ثُمَّ سَارَ وأَخْرَجَ مَعهُ الفِيَلَ. وَيذكرُ المؤرِّخُون أنّ أَصْحَابُ الْفِيلِ كانوا أكثرَ من سِتِّينَ أَلْفًا.

وَسَمِعَتْ بِذَلِكَ العَرَبُ فَأَعْظَمُوهُ، وَرَأَوْا جِهادَ هَؤُلاءِ الغُزَاةِ مِنَ الحَبَشَةِ حَقًّا عَلَيهِم، لِما يُريدونَهُ من هِدْمِ بَيْتِ اللَّهِ الحَرامِ – الكَعْبَةِ -.

فَلَمَّا نَزلَ أَبْرَهَةُ المُغَمَّسَ – قُرْبَ مَكَّةَ – بَعَثَ إِلَيْها جَيْشه الَّذِي يَزِيدُ على سِتِّينَ أَلْفًا، وأَمَّرَ عَلَيْهِ رَجُلاً من الحَبَشَةِ، يُقالُ لَهُ: الأَسْوَد بنُ مَقْصودٍ. فسَارَ الجَيْشُ حَتَّى دَخَلَ مَكَّةَ، فنَهَبَ كُلَّ ما فِيها مِنَ الأَمْوالِ.

وكانَ مِمَّا نَهَبَهُ مِنْها مِئتا بَعيرٍ لِعَبْدِ المُطَّلِبِ بْنِ هاشِم، جَدِّ النَّبِيِّ مُحَمَّدٍ، عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ ، وهُوَ يَوْمَئِذٍ كَبيرُ قُرَيْشٍ وسَيِّدُها.

فَهَمَّتْ القَبائِلُ الموجودَةُ هُناكَ – وهِيَ قُرَيْشٌ وكِنانَةٌ وهُذَيْلُ، ومَنْ كانَ بِذَلِكَ الحَرَم – بِقِتالِهِ، ثُمَّ عَرَفُوا أَنَّهُم لا طاقَةَ لَهُمْ بِهِ، فَتَرَكوا ذَلِكَ.

وبَعَثَ أَبْرَهَةُ أَحَدَ رِجالِهِ، واسْمُهُ حَناطَةُ الحِمْيَرِيُّ إِلَى مَكَّةَ، وقالَ لَهُ: سَلْ عَنْ سَيِّدِ أَهْلِ هَذا البَلَدِ وشَرِيفِها، ثُمَّ قُلْ لَهُ: إِنَّ المَلِكَ يَقولُ لَكَ: "إِنِّي لَمْ آتِ لِحَرْبِكِمْ، إِنَّما جِئْتُ لِهَدْمِ هَذا البَيْتِ، فإِنْ لَمْ تُحارِبونَا فَلا حاجَةَ لَنا بِدِمائِكُم"، فَإِنْ هُوَ لَمْ يُرِدْ حَرْبِي فَأْتِنِي به.

فَلَمَّا دَخَلَ حَنَاطَةُ مَكَّة، سَأَلَ عَنْ سَيِّدِ قُرَيْشٍ وشَرِيفِها، فَقيلَ لَهُ: عَبْدُ المُطَّلِبِ بنُ هاشِمٍ. فَجاءَهُ، فَقالَ لَهُ ما أَمَرَهُ بِهِ أَبْرَهَةُ أَنْ يَقولَهُ لَهُ.

فقالَ لَهُ عَبْدُ المُطَّلِبِ: واللهِ ما نُريدُ حَرْبَهُ، وما لَنا بِذَلِكَ مِنْ طاقَةٍ. هَذا بَيْتُ اللهِ الحَرام، وبَيْتُ خَليلِهِ إِبْراهيمَ عَلَيْه السَّلامُ، فإِنْ يَمْنَعْهُ مِنْه، فَهُوَ بَيْتُهُ وحَرَمُهُ، وإِنْ يُخَلِّ بَيْنَهُ وبَيْنَهُ، فَواللهِ ما عِنْدَنَا دَفْعٌ عَنْه. فَقالَ لَهُ حَناطَةُ: فانْطَلِقْ مَعِي إِلَى أَبْرَهَةَ: فإِنَّهُ قَدْ أَمَرنِي أَنْ آتِيَهُ بِكَ.

فانْطَلَقَ مَعَهُ عَبْدُ المُطَّلِبِ، ومَعَهُ بَعْضُ بَنيهِ حَتَّى أَتَى العَسْكَر، فَأَذِنَ لَهُ أَبْرَهَةُ بِالدُّخولِ عَلَيْهِ. وكانَ عَبْدُ المُطَّلِبِ أَوْسَمَ النَّاسِ وأَجْمَلَهُم وأَعْظَمَهُم، فَلَمَّا رَآه أَبْرَهَةُ أَجَلَّهُ وأَعْظَمَهُ وأَكْرَمَهُ، ثُمَّ قَال لِتُرْجُمانِهِ: قُلْ لَهُ: ما هِيَ حاجَتُكَ؟ فَقَالَ لَهُ التُرْجُمانُ ذَلِكَ، فَقالَ: حاجَتِي أَنْ يَرُدَّ عَلَيَّ المَلِكُ مِئَتَيْ بَعيرٍ أَخَذَها لِي.

فَلَمَّا قالَ لَهُ ذَلِكَ، قالَ أَبْرَهَةُ لِتُرْجُمانِهِ: قُلْ لَهُ: قَدْ كُنْتَ أَعْجَبْتَنِي حِينَ رَأَيْتُك، ثُمَّ قَدْ زَهِدْتُ فيكَ حِينَ كَلَّمْتَني، أَتُكَلِّمُنِي فِي مِئَتَيْ بَعيرٍ لَكَ تُريدُ اسْتِرْجاعَها، وتَتْرُكُ بيتًا هو دينُك ودينُ آبائِكَ قَدْ جِئْتُ لأَهْدِمَه فَلا تُكَلِّمُني فيهِ؟! .

قالَ لَهُ عَبْدُ المُطَّلِبِ: إِنِّي أَنا رَبُّ الإِبِلِ، وإِنَّ لِلْبَيْتِ رَبًّا سَيَحْمِيه. قَال: ما كانَ لِيَمْنَعَهُ مِنِّي قالَ: أَنْتَ وذَلِكَ. فردَّ أَبْرَهَةُ عَلَى عَبْدِ المُطَّلِبِ إِبِلَهُ.

فَلَمَّا رَجَع عَبْدُ المُطَّلِبِ إِلَى قُرَيْشٍ، أَخْبَرَهُمْ بالّذي جَرَى بَيْنَه وبَيْنَ أَبْرَهَةَ، وأَمَرَهُم بالخُروجِ مِنْ مَكَّةَ، والتَّحَرُّزِ في رُؤوسِ الجِبالِ، والشِّعابِ، تَخَوُّفًا عَلَيْهِم مِنْ بَطْشِ الجَيْشِ. ثُمَّ قامَ عَبْدُ المُطَّلِبِ فَأَخَذَ بِحَلْقَةِ بابِ الكَعْبَةِ، وقامَ مَعَهُ نَفَرٌ مِن قُرَيْشٍ يَدْعونَ اللهَ، ويَسْتَنْصِرُونَهُ عَلَى أَبْرَهَةَ وجُنْدِه.

ثُمَّ تَركَ عَبْدُ المُطَّلِبِ حَلْقَةَ بابِ الكَعْبَةِ، وانْطَلَقَ هُوَ ومَنْ مَعَهُ مِنْ قُرَيْشٍ إلى رُؤوسِ الجِبالِ، فَاحْتَمَوْا فيها يَنْتَظرونَ ما فاعِلٌ أَبْرَهَةُ بِمَكَّةَ إذا دَخَلَها.

فَلَمَّا أَصْبَحَ أَبْرَهَةُ تَهيَّأَ لِدُخولِ مَكَّةَ، وهيَّأَ فِيلَهُ، وعبَّأَ جَيْشَه، وهو عازِمٌ عَلَى هَدْمِ الكَعْبَةِ قَبْلَ أَنْ يَعودَ إِلَى اليَمَنِ.

وعِنْدَما أَمَرَ أَبْرَهَةُ جَيْشَهُ بالتَّوَجُّهِ نَحْوَ مَكَّةَ لِهَدْمِ الكَعْبَةِ، فُوجِئَ الجَيْشُ بأَنَّ الفِيلَ يَبْرُكُ إذا وَجَّهوهُ نَحْو مَكَّةَ. وقاموا بِضَرْبِهِ للسَّيْرِ نَحْوَ مَكَّةَ، ولَكِنهم وَجَدوا أَنَّ ضَرْبَهُمْ لإِجْبارِهِ عَلَى القِيامِ للسَّيْرِ نَحْوَ مَكَّةَلا يَنْفَعُ ، وإِنَّه إذا وَجَّهوهُ إِلَى اليَمَنِ للرُّجوعِ، أَوْ إِلَى الشَّامِ قامَ يُهَرْوِلُ. وذكر المؤرِّخُ الجغرافي البَلاذُري أَنَّ الفيلَ نُخِسَ بالرماح فلم ينهض.

وبَيْنَما هُمْ يُحاولونَ إجْبارَ الفيلِ للسَّيْرِ نَحْوَ مَكَّةَ، والجَيْشُ القَويُّ المُدَجَّجُ بالسِّلاحِ، المُغْتَرُّ بِقُوَّتِهِ وجَبَروتِه واقِفٌ، إذْ أَرْسَلَ اللهُ تعالى عَلَيْهِم طُيورًا مِنْ جِهَةِ البَحْرِ أَمثالَ الخَطاطِيفِ، يَحْمِلُ كُلُّ طائِرٍ مِنْها ثَلاثَةَ أَحْجارٍ، حَجَرًا في مِنْقارِهِ، وحَجَرَيْنِ في رِجْلَيْه، بِحَجْمِ حَبَّةِ الحِمَّصِ والعَدَسِ، وأَلْقَتْهَا عَلَى الجَيْشِ، فَكانَتْ لا تُصيبُ مِنْهم أحدًا إلّا هَلَكَ.

فَهَلَكَ مَنْ هَلَكَ مِنْهُم، وفَرَّ الباقونَ هارِبينَ، يَسْلُكونَ الطَّريقَ الّذي جاءُوا مِنْه، ولكنَّهُم بَدَأُوا يَتَساقَطونَ في الطَّريقِ، يَموتونَ الواحدَ تِلْوَ الآخَرِ.

لَقَدْ أُصيبَ أَبْرَهَةُ في صَدْرِهِ، فَخَرجوا بِهِ تَسْقُطُ أَنامِلُهُ أُنْمُلَةً أُنْمُلَةً، ويَتَناثَرُ جَسَدُهُ، حَتَّى قَدِموا بِهِ صَنْعَاء وهُوَ مِثْلُ فَرْخِ الطَّائِرِ، فَما مَاتَ حَتَّى انْشَقَّ صَدْرُهُ عَنْ قَلْبِه.

وَلِلعِبْرَةِ وَالاِتِّعَاظِ، أَنْجَى الله رَجُلَينِ من أَصْحَابِ الْفِيلِ ، قَائِدُ الْفِيلِ وَسَائِقِهُ، وَلَمْ يَكُنْ بِمَكَّةَ أَحَدٌ إِلَّا وَقَدْ رَأَى قَائِدَ الْفِيلِ وَسَائِقهُ أَعْمَيَيْنِ يَتَكَفَّفَانِ النَّاسَ. وَقَدْ قَالَتْ عَائِشَةُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا مَعَ حَدَاثَةِ سِنِّهَا: «لَقَدْ رَأَيْتُ قَائِدَ الْفِيلِ وَسَائِقَهُ أَعْمَيَيْنِ يَسْتَطْعِمَانِ النَّاسَ».

في هَذا العامِ الّذي أَهْلَكَ اللهُ فيهِ أَبْرَهَةَ الطَّاغِيَةَ الظَّالِمَ، وُلِدَ مُحَمَّدٌ، صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وسَلَّم، لِيَكونَ في مَوْلِدِهِ ثُمَّ في بَعْثَتِهِ نِهايَةُ الظُّلْمِ والطُّغيانِ.

وتِلْكَ نِعْمَةٌ أَنْعَمَ اللهُ بِها علَى قُرَيْشٍ وعلَى العَرَبِ قاطِبَةً، بَلْ علَى النَّاسِ أَجْمَعين، وهَذا ما جَعَلَ القُرْآنَ الكَريمَ يُذَكِّرُ العَرَبَ والنَّاسَ بِهَذِهِ الحادِثَةِ ويَمُنُّ عَلَيْهِم بِها، فقالَ اللهُ تَبارَكَ وتَعالى :

(أَلَمْ تَرَ [النَّظَرُ في عَاقِبَةِ الشَّيْء] كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ [أخذ الْعِبَرة من أحوال الأمم السابقة] (1)أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ [الكَيْدُ: إرادة مَضَرَّةِ الغَيرِ خِفْيَةً] فِي تَضْلِيلٍ [ضَلَّلَ: صَيَّرهُ ضالًّا، جعله ينحرف إلى ما يريد] (2)وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ [سِرْباً وَرَاءَ سِرْبٍ، مُتَتَابِعَةً] (3)تَرْمِيهِمْ بِحِجَارَةٍ مِنْ سِجِّيلٍ [سِجِّيل : الطِّينُ اليَابِسِ الْمُتَحَجِّرِ] (4) فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَأْكُولٍ [أيْ كَالتِّبْنُ : ما تهشَّم من سيقان القمح والشَّعير بعد دَرْسِه، تُعلَفه الماشية] (5).

وختامًا أنوِّهُ أَنَّ سُورَةَ الْفِيلِ لَيْسَتْ مُجَرَّدَ سِّينارْيُو سِينَمائِيّ أَو مَسْرَحِيّ يُقرأ للتسلية أو الإثارة، إذْ نحن المسلمونَ نُؤْمِنُ أنَّ ما جاء في سُورَةِ الْفِيلِ وقع حقًّا، وأنَّ أمثالَ أصحابِ الْفِيلِ سيبقون إلى يوم القيامة، اختلفت الأشكال فَحَسبْ، وهذا على الصعيد الشخصي أو المحلي أو الإقليمي.

عَلَى سَبِيلِ المِثَالِ لاَ الحَصْرِ: الْمَحَلِّيّ، أَرْوِي لكم بِاِخْتِصَار حادثةً متواترةً -اللهُ أَعْلَمُ بِصِحَّتِهَا! - وقعت مع امرأةٍ أرادت السُّوءَ بأهل قريةٍ تسمّى كَذَا وَكَذَا، فقد تمرَّدت عن سُنَنِ أهل تلك القرية، وقد تبعها نَفَرٌ مِنْ أَهْلِ تِلْكَ الْقَرْيَةِ ومن قُرًى أخرى. بدأ يعمّ الفساد في تلك الْقَرْيَةِ وأصبحت قِبلَةً لأرْاذِلِ الناسِ، وتوسَّمَتْ سُمعة القَرْيَة بِوَسْمَةِ الْعَارِ، وأصبحت تلقّب بقريةِ كَذَا وَكَذَا بَعْدَمَا كَانَتْ تلقّب بقريةِ كَذَا وَكَذَا .

أرادَ أهل تلكِ الْقَرْيَةِ وَعْظَهَا فلم يُفْلِحوا بِأَيِّ سَبِيلٍ كَـانَ، سواءً بالّتي هي أحسنُ أو بالّتِي هي أخشنُ، فَرَحَلَ منهم من تيَّسَرَ له الرَّحِيلُ واِسْتَرَاحَ وَانْبَسَطْ وبقيَ من تعسّر له الرّحيل يجترُّ غَضَبَهُ وَغمَّهُ. وكان أحدَ الرِّجَال الصَّالِحِينَ من تلكِ الْقَرْيَةِ يُسْرِفُ في الدعاء عليها بأنْ يجعلها تشتاق الموت، وكان قد دعاها ليلًا ونهارًا بأنْ تكفَّ عن هذه الأفعال، أو على الأقلّ أن تذهب إلى القرية الّتي يُفْعَلُ فيها هذه الأفعال فعسى أن يأتي يومًا وتتوبِ، رجاءً اتركي قريتنا، إذْ إنّ الله -على الأرجح- لن يغفر لكِ لأنَّ قريتنا ترفضُ هذه الأفعال، وهذا يعني أن السيّئةَ سَتَتَضَاعَف لكِ مرتين كوْن هذه الْقَرْيَةِ أهلها صَالِحُون، ولكن دُونَ جَدْوَى، بل لقد لجَّتْ في عُتُوٍّ ونفورٍ.

وَبَعْدَ سنواتٍ من الْغَيِّ وَالطُّغْيَان -وعلى عُهْدة الرَّاوي بِالفِعْل- اسْتَجَابَ الله لهذا الرَّجُلِ الصَّالِحِ، إذْ غَشِيَ تلك الْمَرْأةَ الطَّاغِيَّةَ سُقْمٌ حيّرَ الأطبّاء وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ، وَأَشْجَى الأبصار، فقد أصبحت كَمَثَلِ الفَرْخِ، فسيقانها التي كانت شبيهةً بِحَجْمِ سَاقِ الْفِيلِ أصبحت شبيهةً بِحَجْمِ سَاقِ طائِرِ اللَّقْلَق (بِلّارج)، وصوتها الذي كانت تَشْمَئِزّ منه الْمَلَائِكَة وَيَنْفُثُ الرُّعْبَ في قُلُوبِ أَهْلِ تِلْكَ الْقَرْيَةِ ذَهَبَ وأصبحت صُمٌّ بُكْم لا يصدر منها سِوَى صَوْتِ الْأَنِين.

مَا فَتِيء الأطبَّاء فِي كُلِّ يَوْمٍ يَحْقِنُونهَا بِدَوَاءٍ مُسَكِّنٍ حَتَّى يَزولَ الْأَلَمُ عِدَّةَ سَاعَاتٍ لِيُعَاوِدَ مِنْ جَدِيد. هَجَرَهَا الْجَمِيعُ، حَتَّى أبناءَها وأقاربها ومعارفها وسائرَ النَّفر الذي تبعها من أهلِ تِلْكَ القرية.

لَبِثَتْ في المستشفى قُرْبَ السنةِ ولم توافيها الْمَنِيَّةُ، وهذا ما زاد الأطباء عَجْبًا إذْ كانوا يتوقعون أنَّهَا لن تزيد العيش عن أُسْبُوعٍ أو أسبوعينِ، لكنَّ اِنْقِضَاءَ الأعمار بِيَدِ الله وحده لا شريكَ له في ذلك أَحَدٌ.

قرَّرَ أبناؤها أنْ يَزُّجُوا بها في دَارِ المُسِنِّينَ فَقُوبِلَتْ بِالرَّفْضِ كوْن حالتها تقتضي الرِّعَاية فِي الْمُسْتَشْفى، وَحِينَمَا أَرَادُوا إِرْجَاعهَا إلى الْمُسْتَشْفى الذي رفضها أيضًا كَوْنَهَا حَالَةٌ مَيْؤُسٌ منها.

أخذها أحد أبنائها إلى منزله ولكن زوجته رفضت الْعِنَايَة بها، فَاُضْطُرّ إلى اسْتِئْجَار بيتٍ صغير، واسْتِئْجَار مُمَرِّضَة مَحَلّيَّة مَنْزِلِيَّة خاصَّة بها، وظلَّ يعاني معها الشقاء، إذْ أنّها أحيانًا من شدّة صراخها كان يرقدها في الحُجْرة (في أسفل البيت) مع الخُرْدَوَات الْمُسْتَخْدَمَة ويغلّقُ عليها الباب بِإحْكَام حتى لا يسمع صراخها.

قِيلَ أَنَّهُ طلب من الطَّبيب مُضَاعَفَة الْجُرْعَة الدَّوَائِيَّة حتى تموت فنرتاح ويبقى أمرها لله، فأنا ضيّعتُ عملى وصِحَّتِي وعائلتي وأفلستُ؛ أنا على وشكِ الْاِنْهِيَار وقد تُزْهَق روحي قبلها.

بعد أنْ مرَّت شهورٌ من الشَّقَاء لِاِبْنِهَا، وَالْبَأْسَاء لها، تُوُفِّيَتْ هذه المرأة الطَّاغِيَة، ولم يحضر جَنَازَتِهَا سِوَى عَدَدٌ يسيرٌ من النَّاس، إذْ دُفنت عَلَى عُجَالَةٍ وَفِي الشَّفَقِ مِنَ اللَّيْلِ. وفي الجَانِبِ المُقابِل لو كفّت أذاها عن النَّاس، وهي قادرة على ذلك، لكان لها حسنُ العاقبة وَحُسْن الْمَآبِ.

أَرْجُو اللهِ جَلَّ جَلالُهُ، الْعَزِيزِ الْوَهَّابْ، لِي وَلَكُمْ، أنْ يَهَبنَا حُسْنَ فَهْمَ آيَّاتِ الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ والعمل بها، وَكَذَلِكَ أرْجُوه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أَنْ يُلْهِمَنَا رُشْدَنَا عن إلحاق الضَّرر في سُنَن وَمُقَدَّسَات وَعُرْفِ الْآخِرِينَ، آمِينَ.